

التناص الديني في خطب الزبيريين في العصر الأموي

Religious Intertextuality in the Speeches of the Zubayrids During the Umayyad Era

د. امانى محمد ربيع

الباحث:

أستاذ مساعد، جامعة جرش - قسم اللغة العربية

Email: Arby55094@gmail.com**Abstract**

This study explores religious intertextuality in the sermons of the Zubayrids during the Umayyad era, focusing on how sacred texts were employed to reinforce political and ideological discourse. It highlights the transformation of Arabic oratory from its religious beginnings in early Islam to a politically driven art form that played a vital role in legitimizing authority and shaping public opinion. Through an analytical approach, the research demonstrates that Zubayrid preachers used intertextual references from the Qur'an and Prophetic Hadith both directly and indirectly to strengthen their arguments, evoke emotional resonance, and establish moral credibility. This deliberate use of sacred language elevated their sermons beyond mere political rhetoric, granting them spiritual and persuasive depth. The findings show that the Umayyad period was a time of rhetorical sophistication and artistic innovation in Arabic prose, where religion, politics, and eloquence converged. Ultimately, this study contributes to understanding how religious discourse functioned as a tool of persuasion in the political and cultural landscape of early Islam.

Keywords: Intertextuality, Oratory, Zubayrids, Qur'an, Hadith, Umayyad Era.

التمهيد : الخطابة وتطورها

تطورت أساليب الخطابة في العصر الأموي عما سبقها، حيث ازدهرت الخطابة في هذا العصر ازدهارا ملحوظا، فهذا العصر حديث العهد بالعهدين الجاهلي وصدر الاسلام، والعرب ما تزال لغتهم تتسم بالجزالة والقوة والسليقة اللغوية، وما تزال محافظة أيضا على طبيعتها، ولم تتأثر بدخول لهجات ولغات أخرى أفسدتها كما هو الحال في العصور اللاحقة .

اتسمت الخطابة في العصر الأموي بأنها ذات منحنى سياسي بحت، فامتازت بذلك عن الخطابة في العصر الجاهلي، التي كانت خطابة تتوخى المناسبات سواء كانت اجتماعية أو سياسية غرضا لها، كالتحريض على الخصومات والقتال والوفادة على الملوك والأمراء من ذوي النفوذ السياسي، والإقبال على الزواج و ذكر مناقب الخاطب، أما في عصر صدر الإسلام، كانت الخطابة تتمحور حول الدعوة إلى الدين الجديد، حيث كان الخطباء في مواسم الحج وسفاراتهم إلى القبائل يتوسلون بالخطابة كفن نثري من خلاله تتم دعوة الناس إلى الإسلام، ولا سيما أن الشعر في هذا العصر تراجع مع حلول القرآن ككتاب معجز له المرجعية الدينية والصدارة البلاغية على سائر أنواع الكلام الأخرى .

تحولت الخطابة في العصر الأموي من خطابة دينية إلى خطابة سياسية، أملت الظروف السياسية في ذلك العصر، من أهمها العصبية القبلية التي كان يرعاها خلفاء هذه الدولة، بعد أن حاربها الإسلام، وأيضا حركات التمرد التي قادها الخوارج والشيعة بعد حادثة كربلاء على النظام السياسي للدولة الأموية، وتفشي حياة اللهو والمجون في

عصرها سواء بين الخلفاء أو الرعية .

من خلال دراسة الخطب في ذلك العصر ولا سيما خطب الزبيريين، أنها فضلا عن خصائصها الفنية من استخدام المحسنات البديعية، عمدت إلى التناص الديني من القرآن الكريم والسنة النبوية، لكي يحقق الغاية المرجوة من هذا التناص، وهي أهمية النص الديني على النفوس، كونه نصا مقدسا، واجب العمل به فيثاب من يمتثل به، ويؤثم تاركه.

ومن أهم الخطب السياسية كانت خطب الزبيريين، وهم من أتباع الزبير بن العوام. ومن مظاهر هذا التطور أنها فضلا عن بلاغتها وفصاحتها، شهد العصر الأموي تطورا ملحوظا في الحياتين السياسية والاجتماعية، كما شهد أيضا قفزة حضارية تمثلت في اتساع الفتوحات الإسلامية حتى وصلت إلى أفريقيا غربا وآسيا شرقا، وكان لهذه الفتوحات أثرها البين على الحياة الإسلامية، بدخول أقوام وأجناس إلى الإسلام فتعددت اللغات وتباينت اللهجات، وانتقل العرب من حياة البادية في شبه الجزيرة العربية، إلى حياة الحضر في الشام، وما تبع ذلك من تغير في العادات والتقاليد والقيم التي كانت سائدة في العصر الإسلامي .

المقدمة

نشأت الدولة الأموية بعد الخلافة الراشدة، على يد معاوية بن أبي سفيان، وانتشرت الرقعة الإسلامية في عهد هذه الدولة، وشن قادتها العديد من الحملات على الروم البيزنطيين، لكن ذلك لم يحد من النزاعات السياسية التي مهدت لسقوطها، ولكن ذلك لم يحل من أن العصر الأموي كان مزدهرا من الناحية الأدبية، ولعل الفضل يعود في ذلك إلى الأحداث السياسية الدامية التي شهدها عصر هذه الدولة، فقد عمد الخلفاء وولاء الأمر إلى جذب الأدباء من الشعراء والخطباء وكتاب الرسائل إليهم، للدعوة إلى الأمويين بأنهم الأولى بالخلافة من سواهم.

انخرط الشعراء في الحياة السياسية، على سبيل المثال كان كعب بن جميل التغلبي أموي النزعة، وقد حارب مع قومه يوم صفين مواليين معاوية، وهو الذي صور حال أهل الشام وأهل العراق بقوله إن كلا منهم يبغض الآخر ويحاربه، وإذا كان أهل العراق يولون عليا إماما عليهم، فإن أهل الشام يولون معاوية، ولن يستجيب أهل الشام لعلي، ثم قال إنني لا أعيب عليا إلا بأنه ضم إليه الصغار وأهل المعصية، وتهاون مع قتلة عثمان، فلا هو أظهر رضاه عنهم، ولا هو أظهر سخطه عليهم، ويقول إنه لم يأمر بقتله، ولم ينه عنه، وإنه لم يحزن عليه، ولم يفرح به، ولكن المعقول أن يكون بعض هذا قد حدث، وإنه في حملته لما كر، لأنه قد تأتى إلى انتفاضة في لطف وحسن مدخل¹.

يمكن القول إن الشعر الأموي لم يكن سياسيا صرفا، بل ظهر في ذلك العصر الشعر العذري الذي كان له أعلامه من الشعراء² كما ظهر شعر النقائض في ذلك العصر، من أبرز الشعراء في العصر الأموي شعراء النقائض الثلاثة جرير والأخطل والفرزدق .

غيرت النقائض أحد فنون الشعر الجديدة، التي تطورت تطورا واسعا في العصر الأموي نتيجة لدوافعه المتعددة وطبيعته الفنية وغاياته ومقاصده الاجتماعية التي تباينت عما كان عليه الهجاء والنقائض خاصة في العصر الجاهلي . ذلك أن الهجاء كما هو معروف غرض من أغراض الشعر العربي منذ الجاهلية وكان يدور في حلقتين كبيرتين: ذاتية تتعلق بالشاعر نفسه، وجمعية أو غيرية تتصل بالقبيلة التي يدافع عنها الشاعر أمام القبائل الأخرى التي تهاجيها، وكثيرا ما كانت هذه الأهاجي، أي الهجاء القبلي ترتبط بالحروب والوقائع / الأيام التي قبلها أو بعدها، وكانت تشكل ضربا من الصراع القبلي، لا يقل عن الصراع الحربي³.

يبدو السجل الشعري سمة بارزة في ذلك العصر، ولا سيما بين المواليين للخليفة المنادين بالبيعة له من جهة، وبين خصوم هؤلاء من الشعراء من كانوا يرون أن الأمويين هم من اغتصبوا الخلافة وجعلوها إرثاً بينهم، وعلى رأس هؤلاء شعراء الخوارج وشعراء الشيعة وشعراء الزبيريين، أما شعراء الخوارج تلك الفرقة التي خرجت على الإمام علي بن أبي طالب لكونه قد رضي بالتحكيم مع معاوية بن أبي سفيان بعد موقعة صفين، وكانوا من ألد أعداء الدولة الأموية فسفكوا الدماء وأرهقوا الأرواح، ديدنهم المساواة بين المسلمين كافة فلا عصبية قبلية تغلب طائفة على أخرى، وكانوا من العوامل التي ساهمت في سقوط الدولة الأموية، أما أبرز شعراء الخوارج فهم: أبو خالد القناتي وأبو الوازع الراسبي والأعرج المعني⁴ أما شعراء الشيعة وهم أتباع الإمام علي بن أبي طالب، وسموا بتلك التسمية لأنهم تشيعوا للإمام علي، وهو على خلاف الخوارج، يرون أن علياً هو الأحق بالخلافة وهي واجبة في ذريته من بعده.

يعود السبب في اختيار خطب الزبيريين كعنوان لهذا البحث، أنها تشكل حلقة من حلقات تطور الخطابة في العصر الأموي. الذي شهد نقلة حضارية في فترة وجيزة، انتقل فيها العرب من حياة البداوة إلى حياة الحضرة واختلطوا بالأجناس الأخرى في البلاد التي فتحها المسلمون، أن خطب الزبيريين تشكل وثيقة لدارسي هذا العصر، ليس على الصعيد السياسي وحسب بل التاريخي والاجتماعي أيضاً، تتجلى فيها أشكال الصراع الذي تشكلت في ذلك العصر.

ما يميز الخطابة في هذا العصر عما سبقها، أنها تمرتد في اللغة والأسلوب على الخطابة ولا سيما في عهد صدر الإسلام، حين كان وفود القبائل يأتون في موسم الحج للمبايعة والدخول في الإسلام، حيث كانت هذه الخطابة تمتاز بالمباشرة والسلاسة في الأسلوب بما يقتضيه مقامها والغرض من إنشائها، ولعل في منافسة الشعر لها والذي ما يزال لسان العرب والناطق باسمهم وديوانهم الذي لا يناعه منازع، ما جعل الخطابة ما تزال تتقهقر في مكانها، لا تتطور لتغدو لها لغتها الخاصة بها وجوهرها الذي يميزها كفن نثري عن الشعر.

يمكن القول أن العصر الأموي هو العصر الذي تطورت فيه الخطابة تطوراً ملحوظاً بخصائصها ولغتها المتفردة، فكانت من أهم مظاهر تطور الأدب في العصر الأموي، لا بل الأدب النثري في الأدب العربي القديم.

حافظ العرب حتى ذلك العصر على سلائقهم اللغوية، وكان لهم من بلاغة المنطق وحسن البيان وجودة الإفصاح والإفهام، ما يمكن أن يشكل مادة الخطابة الأولى، كذلك فإن هذا العصر قد امتاز بظهور معارضة قوية للدولة الأموية، مما كان يقوي جذوة الخطاب العربي بين الأطراف المتنازعة، وقد ظهر للأمويين خطبهم وكذلك للشيعة والزبيريين والخوارج والمرجئة، وكان يدور بين هؤلاء جدل سياسي وديني وأدبي، ساهم في إنتاج كم هائل من الخطب والرسائل والدواوين لم يعرفها العرب أبداً في العهود السابقة⁵.

وعرف هذا العصر تطوراً ملحوظاً في فن الخطابة، لا تقل عن التطور الذي شهده الشعر، ومرد ذلك نشوء الأحزاب السياسية واستفحال النزاع بينها، من جهة، وبحكم التعرف إلى حياة اجتماعية جديدة، حافلة بأسباب الرغد والرفاهية، من جهة أخرى، وأما النثر، فبمقتضى الحاجة إلى المراسلة، بعد اتساع الفتوحات، ودخول الأقطار النائية في حوزة الحكم الإسلامي، وفي الخطابة لتعليم الناشئين من الأجيال الطالعة، والداخلين في الإسلام من الأعاجم، ولإخضاع المتمردين من المخالفين، وقمع العصاة من الثائرين⁶.

حيث يمكن للباحث من خلال دراسة الخطب الأموية على اختلافها، سواء خطب الخلفاء أو خطب العمال أو خطب الخوارج أو خطب الشيعة أو الزبيريين⁷ أن يقف على وثائق مهمة تعد مرجعاً غنياً للباحث، حيث تتمظهر فيها صور نابضة للحياة في العصر الأموي من خلال تلك الخطب، وهذا ليس بالغريب كون الأدب إنما هو مرآة العصر الذي يعيش فيه.

يأتي هذا البحث في عدة أقسام: ملخص ومقدمة ومبحثين، يتضمن المبحث الأول دراسة التناص الديني من حيث اللغة والاصطلاح، والمبحث الثاني يتضمن دراسة التناص الديني من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. وختاماً أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

المبحث الأول: التناص لغة واصطلاحاً

التناص في اللغة جاء ذكره في مادة (نصص) تناص القوم أي اجتمعوا، أو دفعك الشيء، ونص الحديث ينصه نصاً⁸.

أما من حيث الاصطلاح يمكن اعتبار التناص عند النقاد، بأنه انفتاح النص على نصوص أخرى في إطار شبكة من العلاقات بالتفاعلية ما بين هذه النصوص تنهض على آليات الحوار والامتصاص والاجترار. ومن تجليات هذا الانفتاح المبني على الآليات الثلاثة السابق ذكرها، هو وجود تفاعل ظاهر ومضمّر بين النصوص، يستجلي طبيعة ذلك التفاعل الباحث من خلال بيان أشكال هذا التفاعل الذي يستتبع اندماج هذه النصوص مع بعضها البعض، وإنتاج نصوص جديدة، حيث أنه عند تأصيل هذه النصوص، نستطيع الوقوف على ثنائيات هذا الاندماج التي تقوم على الهدم والبناء، كما تحل النصوص الجديدة محل النصوص القديمة، مما يثري هذه النصوص فيجعلها خليقة بتعدد القراءات لها واكتشاف مضامينها المستترة.

على خلاف النقد الغربي الذي ظهر فيه هذا المصطلح بعد المرحلة البنيوية، حيث صاغته جوليا كريستيفا مستندة إلى الحوارية عند ميخائيل باختين المفكر الروسي ذائع الصيت، وقد انشغل بتوضيح مفهوم الحوارية، الذي يعد اصطلاحاً في عمله الفكري، ونظرته إلى علاقة الأنا بالآخر، ذلك من خلال كتابه عن ديستوفسكي، الذي نشر في عام 1929 م⁹.

إن هدف التناص يتمثل في كيفية الكتابة لقراءة النص الإبداعي قراءة أعمق وأجمل، والتناص نوعان: تناص مباشر، وهو تناص يحوي توظيف النص المرجعي ذاته دون مواربة ثم توظيف النص المرجعي متضاداً، ثم توظيف النص المرجعي وفق تداخل نصوص عدة أي بنى مرجعية متعددة، وتناص غير مباشر، وهو التناص الذي لا يبوح النص فيه بالمرجع، بل أنه يوميء إليه من خلال دلالات خاصة في النص الحاضر، أو من خلال حركة القصيدة أو أي ملمح يوميء إليه¹⁰.

تكمن أهمية التناص في امتلاكه آليات يمكن استيعابها عند قراءة النص، والاستفادة منها في تحليله، ومنها الجلي، ومنها الخفي، منها الساخر، ومنها ما يقوم على الاستدعاء أو الإدماج، منها ما يقوم على التحويل وتشرب النصوص، ومنها ما يعمل على التمطيط، وآخر يقوم على الإزاحة¹¹.

يعد مفهوم التناص في النقد العربي الحديث مفهوماً حديثاً، وقد تعامل معه النقاد العرب بشيء من الريبة، فوقفوا منه مواقف شتى، تشي بعدم قدرتهم على تأصيل هذا المفهوم في الأدب العربي، الذي يعد الوجه الآخر للتضمن والاقتراس، ولكن هذا الموقف لم يستمر طويلاً، مع انبراء النقاد لدراسة مفهوم التناص وتأصيله سواء من حيث دلالاته ووظيفته.

يمكن القول . عطفاً على ما سبق . إن التناص ذو مفهوم واسع حيث استأثر بالعديد من الدراسات النقدية لبيان مفهومه سواء من حيث اللغة والاصطلاح، فهو يشير إلى التعالق بين النصوص والتداخل فيما بينهما، وأثر ذلك على قراءة هذه النصوص قراءة ذات دلالات تبين آلية هذا التداخل سواء كان مباشراً أو غير مباشر، مما يحقق فاعلية القراءة لاستكشاف دلالات تلك النصوص وتعميق فهمها وسبر دلالاتها المضمرة وغير المضمرة، من خلال انفتاح التأويل وتعدد مستويات القراءة لتلك النصوص، وبيان تأثيرها بالنصوص التي تعالقت وتداخلت معها سواء من حيث الدلالة أو السياق .

المبحث الثاني : التناص الديني

يعد التناص الديني من أهم أشكال التناص، الذي يتم فيه استحضار مفردات أو جمل أو معان من الكتب السماوية كالقرآن الكريم أو الإنجيل أو التوراة، أو من المأثورات ذات المرجعية إلى هذه الكتب، التي تنقل كتابة أو مشاهمة من أشخاص تروى عنهم هذه المأثورات وجرى تواترها من جيل لآخر، كأقوال الرسل والأنبياء والقديسين، ويكون هذا التناص لفظاً أو معنى سواء بطريقة ظاهرة أو مضمرة، ويعد القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة هي من أهم المأثورات الدينية التي لها مرتبة دينية عليا في الدين الإسلامي كمصدر للتشريع. لا يقتصر التناص على الكتب السماوية والمأثورات الدينية، بل أنه يشمل كذلك استدعاء شخصيات دينية أو أحداث مختلفة ارتبطت بالدين وكان لها تأثير في رسوخه وانتشاره أو تقهقره في مرحلة من مراحل، وبالتالي يتسع نطاق التناص الديني، ليصبح ذا مفهوم شامل يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالدين، وما يتصل به من ألفاظ ومعان وأحداث.

يكون التناص الديني من خلال التعالق النصي بين الخطبة والنصوص الدينية، حيث يتوخى الخطيب أن يكون التناص في خطبته متجلياً في ما يورده من معان وألفاظ وشواهد، بل إنه قد يلجأ إلى الاقتباس والتضمين حين تستدعي الخطبة ذلك، والتناص مع النصوص الدينية لم يأت عفواً، بل إنه يأتي في موضعه من الخطبة، وهذا ضرب من ضروب بلاغة الخطباء، أن يجعلوا لكل مقام مقالا، وهذا ما يتوخاه الخطباء الذين ملكوا أعنة البيان والفصاحة في خطبهم، فيتم استدعاء نصوص الترغيب والترهيب واللين والشدّة والوعظ والإرشاد في القرآن الكريم والسنة النبوية، حين يكون الغرض من الخطبة استدعاء مثل هذه النصوص، حتى يكون تأثيرها له وقعه الكبير في النفوس، فتتحقق الغاية من الخطبة في الحجة والإقناع والمحااجة من خلال تناصها مع النصوص الدينية، التي تحظى بمرتبة القداسة، مما يغدو معه استدعاؤها محققاً للغاية المتوخاة من هذا الاستدعاء.

يبدو للباحث من خلال دراسة الخطب السياسية في العهد الأموي، أن تناصها الديني أعطاها إلى حد كبير قوة تأثير وأعطاها رؤية جديدة للأحداث، بحيث أضفى النص الديني على الخطبة ولا سيما السياسية بأن تكون لها منزلة في النفوس تجاوز تلك المنزلة التي يحظى بها النص الديني وإن لم تتجاوزه، ولعل ما يلاحظ من اتكاء الخطباء الأمويين على النصوص الدينية لم يأت دون قصد مضمّر، إذ يتمثل بالإيحاء إلى من يتلقون هذه الخطب، أن من يهاجموهم من خصومهم، هم من يناؤون من جعلوا القرآن الكريم والسنة النبوية دستوراً ومنهاج حياة لهم، وأن هؤلاء الخصوم ليسوا على ملة الإسلام، وهذا ما يبرر أن الخلفاء والولاة في العصر الأموي، لم يكن يستميلون سوى الدهاة والبلغاء من الخطباء، الذين ذاع صيتهم في هذا العصر، الذي أصبحت فيه الخطابة هي البيان الرسمي للسلطة السياسية، والتي استطاعت بما لها من خصائص امتازت بها عن الشعر من التصوير والتخييل والمحااجة والاستشهاد، أن تتجاوز مرتبة الشعر، الذي لم يكن له ذلك الحضور في الصراع السياسي في العصر الأموي، فوجد حضوره في نواح أخرى، كشعر النقائض والغزل العذري اللذين امتاز بهما الشعر في ذلك العصر، حين قصر عن مجارة الخطابة.

تعتمد الدراسة إلى دراسة التناص في النصوص الدينية من خلال التناص مع القرآن الكريم والحديث الشريف تباعاً فيما يلي .

أولاً : التناص من القرآن الكريم

يظهر لنا من خلال الإطلاع على عدد من الخطب السياسية في العصر الأموي، أنها تناصت مع القرآن الكريم بشكل واضح، حيث يتخذ مظهراً من مظاهر الانسياق للنص القرآني وتمثله بشكل يدل على التأثير فيه سواء من

حيث الألفاظ أو تراكييب الجمل، أو من حيث الاحتفاء بالمحسنات البديعية واللفظية، والوضوح في المعاني، وبراعة الاستهلال والإيجاز والبعد عن مواطن الغموض، إلى غير ذلك من فنون البلاغة والبيان التي زخر بها القرآن الكريم.

يبرر هذا التناص مع القرآن الكثير من الأسباب، منها حداثة عهد العصر الأموي بالعصر الإسلامي الذي شهد مرحلة النبوة، حيث يبرر تأثر الخطباء الأمويين بالقرآن الكريم من الناحيتين الدينية والأدبية، فما يزال تأثيره في النفوس كبيراً فهو نص مقدس نزل على الرسول الكريم، لا جدال في مرتبة القداسة التي يرقى إليها، فاستثمر الخطباء تلك المرتبة للقرآن الكريم في خطبهم لاستمالة من تلقى عليهم وإثارة النوازع الدينية في نفوسهم. ولا سيما بأن الخطابة في العصر الأموي نشأت وتطورت في ظل وجود منازعات دينية وطائفية بلغت أوجها في ذلك العصر. وبالتالي كان النزاع على السلطة قد أسهم بشكل كبير في تطور فن الخطابة، حيث انبرى الخطباء لكل طائفة يدافعون عن طائفتهم، ويفندون حجج وأسانيد الطائفة الأخرى، بما يستحضره من المعاني والألفاظ القرآنية. يتجلى الحرص الكبير لدى الخطباء على إيلاء التناص من القرآن الكريم أهمية كبرى، نظراً لأهمية ذلك التناص في جعل الخطابة ذات أثر يتوخى منه استمالة من تلقى عليهم، ولا سيما أن الخصوم في ذلك العصر كان الحجاج فيما بينهم بما يتطلبه من البراهين الدامغة والأدلة الراجحة، المستقاة من النص القرآني لفظاً ومعنى واستدعاء للقيم الإيمانية الواردة فيه، هو الوسيلة لبيان أنهم أصحاب الحق دون سواهم.

شهد العصر الأموي تطوراً واضحاً وملموساً في فن الخطابة، فقد كان الفرقاء يعتمدون عليها اعتماداً كلياً للتعبير عن آرائهم السياسية، ولإقناع واستمالة المتلقي في جميع مواقفهم الحياتية ومناسباتهم الدينية والدينية. ولقد كانت نشأة الأحزاب السياسية وتعدد الفرق الإسلامية من المؤثرات في تطور الخطب العربية حينذاك، فالأحداث السياسية في العصر الأموي كان لها دور كبير في التغييرات الواسعة في حياة الأمة العربية والإسلامية، حيث غلب الاعتناء بالشؤون السياسية على الاعتناء بالشؤون الدينية. مما أسهم في ازدهار الخطب السياسية وتزايد أعداد الخطباء السياسيين، الذين ملكوا أعنة الفصاحة والبيان مثل زياد بن أبيه والحسن البصري والحجاج وتميز هذا العصر عن غيره من العصور السابقين (الجاهلي وصدر الإسلام) بقيم خطابية وفكرية وجمالية خاصة به، وذلك من حيث مكونات الخطبة النبوية البديعية أي البنائية البديعية والاسلوبية والفنية والحجاجية¹² يتفاعل النص الأدبي مع النص القرآني توظيفاً وتقاطعا وانسجماً فهو يعد دستوراً شريعياً ومنهاجاً أمة، ويمثل في اللغة العربية تاج أديها وقاموس لغتها، ومظهر بلاغتها وحضارتها، ثم فوق ذلك طاقة خلاقة من الذكر والفكر، يجد فيها الذاكرون والمتفكرون، لمساة سماوية تهتدي لها المشاعر وتقشعر من روعتها الأبدان كما تدبرت معانيها واستشعرت جلالها¹³.

يلحظ أن الشواهد كثيرة على التناص من القرآن في خطب الزبيريين، ففي خطبة عبدالله بن الزبير لما قتل الحسين¹⁴، قوله "أما والله ما كان يبدل بالقرآن الغناء" فهنا نلاحظ أن التناص جاء على مستوى لفظي ظاهر، حيث أن استدعاء لفظ القرآن الكريم جاء كحجة دامغة، على أن الحسين بن الخليفة علي بن أبي طالب، الذي قتله بنو أمية في موقعة كربلاء، كان من أهل القرآن، ولم يبدله بسماع الأغاني كما هو حال خلفاء بني أمية، وهذا الخطاب الموجه بعامة إلى أهل العراق وهم غدر فجر إقليلا، وخاصة إلى أهل الكوفة وهم شرار أهل العراق، الذين نكلوا بالحسين وتخلوا عن مناصرته، هو خطاب غايته التأثير في نفوس من خرجوا على الحسين وتقريعهم على فعلتهم الشنعاء¹⁵.

يختتم ابن الزبير خطبته بتناص قرآني، يمثل حسن القفلة في الخطبة، في قوله "فسوف يلقون غيا"¹⁶، في هذه الآية الخطاب موجه إلى القوم الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، جزاء هؤلاء القوم هم ملاقاتهم للغى أي

الخسران، فجاءت مقابلة أهل الكوفة بهؤلاء القوم، أن مصيرهم سيكون هو الغي أي الخسران يوم القيامة. فالخطاب هنا يتسم بطابع التهديد والوعيد، أن العقاب آت لا محالة، وهو يتوعدون الخارجين عن طاعة علي وشيعته بالخسران المبين. ولعل خطاب السلطة الأموية كان يعتمد إلى الجمع بين الترهيب والترغيب¹⁷. يستهل وفي خطبة أخرى لعبدالله بن الزبير بمكة بعد مقتل أخيه مصعب 18، خطبته بجملة "الحمد لله"، وهي الآية الثانية من سورة الفاتحة، فالخطيب هنا إنما يشكر الله شكرا خالصا على نعمائه وفضله، وجاء الاستهلال موفقا في هذه الخطبة التي كان موضوعها الثبات على المصيبة، حين بلغه من أمر العراق ما بلغه من مقتل الحسين وجماعته وغدر أهل العراق به، فالتناص مع تلك الآية كان الغاية منه هو الشد من العزيمة وتجاوز المحنة، وهذا لا يتأتى إلا لكل مؤمن صادق ثابت الجنان.

في ذات الخطبة أيضا تجد تناصات أخرى كأن نقف منها على قوله تعالى "يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير"¹⁹، فهذا تناص من الآية السادسة والعشرين من سورة آل عمران، وهي إن كان الظاهر أن الغاية من ذكرها التسليم بقضاء الله وقدره، فهي تبين لمن تلقى إليه، أن انتصار بنو أمية في موقعة كربلاء، الذي انتهى بمقتل الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب وأهل بيته على يد جيش يزيد بن معاوية. فرسخ حكمهم ووطد خلافتهم، سيكون مآله الزوال، فهم إن أوتوا الملك سينزع عنهم الملك بأمر الله تعالى، وهذا الأمر بيد الله وحده وهو على كل شيء قدير.

يجيء من الناحية البلاغية التقابل في هذه الآية بين الصور الحاضرة، وهو تقابل جمالي يقوم على مقابلة الشيء بضده، يؤتي وينزع، يعز ويذل، يتوخى منه كأسلوب بلاغي تأكيد الفكرة المراد بها في هذه الآية من خلال تلك التضادات الجمالية، التي تمازج بين الترغيب والترهيب، حتى تقرر في وجدان من يستمع إليها ويعمل عقله على العمل بها والإيمان بها.

نجد في خطبة مصعب بن الزبير بالمدينة²⁰، جاءت خطبته القصيرة في بضع جمل، تنهض على تناصات دينية من أهمها ما أورده في خطبته بقوله "واتقوا الله" فهذه الجملة وردت في مواقع شتى من القرآن الكريم، منها الآية السادسة والعشرون من سورة الحشر²¹، وقد جاءت موائمة لموضوع الخطبة على أن التقوى هي درع المؤمن، وعلى أهل المدينة التقوى والسمع والطاعة، فهما المنجيتان لهما، بعد أن قام مصعب بن الزبير بقتل الخمسمائة أسير من الجيش الشامي، الذي قتل قائده حبيش القيني.

وبالتالي يتجلى التأثير القرآني في الخطب الأموية عموما والزبيريين بشكل خاص، حيث استمدت تلك الخطب براهينها الدينية عما ورد في القرآن الكريم من آيات كريمة يتم ذكرها لتقوية الحجة لدى الخطيب وجعل المستمع ينصاع لتلك الخطب ويمتثل لأحكامها.

ثانيا: التناص من الحديث النبوي الشريف

يعد الحديث الشريف المصدر الثاني – بعد القرآن الكريم – لذا فقد نال نصيبه من الاهتمام من الخطباء الزبيريين، من خلال تناول كلمات وجمل وتراكيب من الأحاديث النبوية الشريفة، حيث لا يعتمد هؤلاء إلى إيراد حديث تام بعينه، بل يكتفى بالإشارة الدالة على تناول جزء من هذا الحديث، ولعل مرد ذلك إلى أن ذكر الحديث كاملا بسنده ومتنه، ليس بالأمر الهين في داخل الخطبة الواحدة، كونه يفصل بين أجزاءها ويحول دون تسلسل أفكارها وتوارد معانيها في سامعها، ولا سيما أن كثيرا من الأحاديث هي أحاديث طوال، والكثير من الخطب الزبيرية تقوم على الإيجاز لا الإطناب، وأيضا كون الأحاديث النبوية الشريفة منها الصحيح والضعيف، وذكرها كاملة بما يتطلب ذلك من صحتها وضعفها، يناقض الغاية من ذكرها، وهي التمثيل بأحكامها والاهتداء بسنة قائلها الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام.

يتأتى لنا من خلال قراءة بعض الخطب الزبيرية تناصها مع الحديث الشريف، ولعل لهذا التناص فائدته في الحجاج السياسي، في أن من خرجوا على أهل السنة والجماعة من بني أمية، هم خرجوا على سنة الرسول (ص) الذي لم يجعل الخلافة وراثية في الإسلام، وإنما أمرها شورى.

نجد بأن التناصات من الأحاديث النبوية الشريفة في الخطب الزبيرية كثيرة، سنذكر بعضها للتدليل على هذا التناص، هو ما ورد في خطبة عبدالله بن الزبير لما قتل الحسين، قال راثيا الحسين "أما والله كان يبذل القرآن الغناء، ولا البكاء من خشية الله الحداء" فجملة البكاء من خشية الله وردت في كثير من الأحاديث النبوية الشريفة، فقد وردت في الحديث الذي روته عائشة أم المؤمنين "...البكاء من خشية الله غنيمة" 22، فهذا التناص الغاية منه هو تأكيد على رسوخ الإيمان في نفس الحسين، وهذه الجملة التناصية بجدارة تفرض نفسها في متن الخطبة، بما فعلته من الموازنة بين شخصيتي القاتل والقتيل وشتان ما بينهما، فالقاتل من أهل الغناء والمقتول من أهل القرآن، وبالتالي تشبك الموازنة مع بنية الخطبة في إطارين دلالي وبنائي، وتجسد حضور وظيفتها في النص المتناص منه. من خلال تلازمها مع موضوع الخطبة والغاية منها.

ورد أيضا في خطبة عبدالله بن الزبير لما قتل أخيه مصعب، قوله "وموتا تحت ظلال السيوف" 23 فهذا التناص ورد في كثير من الأحاديث الشريفة، وهو ما ورد في الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه قوله صلى الله عليه وسلم "واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف". فالحث على الجهاد والمصابرة كان هو الغاية المتوخاة من ذكر الموت تحت ظلال السيوف، وهي دعوة صريحة من الخطيب صريحة للجهاد ضد بني أمية الذين قتلوا أخاه مصعب.

يتجلى لنا مما تقدم. في خطب الزبيريين، أن التناص الديني من القرآن الكريم الذي يعد ينبوع الفصاحة ومعين البيان، والحديث النبوي الشريف وهو ما صدر عن الرسول الكريم من قول أو فعل أو تقرير ويعد مصدرا ثانيا للتشريع، جاء موفقا ولم يأت عفو الخاطر، أو من قبيل الاستطراد والإسهاب، فكان ذا وقع في نفوس من يسمع هذه الخطب سواء من جماعة الزبيريين أو خصومهم السياسيين، ويحقق الغاية المرجوة من التناص وهي أهمية النص الديني في النفوس، كونه نصا مقدسا، واجب العمل به فيثاب من يمتثل به، ويؤثم تاركه، وبالتالي لا تكون الغاية من التناص على اختلاف صوره، هي الزخرفة اللغوية واللمسات البيانية، وإنما كانت الغاية هي منح الخطب الزبيرية مصداقية دينية تستمد قوتها بتمسكها بالدين الحنيف نصا وروحا، مما يعطي لها قبولا لدى المستمعين لهذه الخطب، تدحض به من خالها أسانيد وحجج خصومها السياسيين.

خاتمة البحث

- أن ما يميز الخطابة في هذا العصر عما سبقها، أنها تمرت في اللغة والأسلوب عن الخطابة في عهد صدر الإسلام، حيث يمكن القول أن العصر الأموي هو العصر الذي تطورت فيها الخطابة تطورا ملحوظا، حيث يعد بأنه العصر الذي شهد مولد تلك الخطابة بخصائصها ولغتها المتفردة، وجعلها من أهم مظاهر تطور الأدب في العصر الأموي لا بل الأدب النثري في الأدب العربي القديم.

- إن الخطباء الزبيريين كانوا على صلة وثيقة بالنصوص الدينية التي اتكأوا عليها في خطبهم، سواء كان ذلك من القرآن أو الحديث الشريف، فكانت جزءا لا يتجزأ من خطبهم التي يستهلونها بتلك النصوص، التي غلب عليها التناص من القرآن الكريم، أكثر من الحديث الشريف.

-إن التناص الديني في الخطب الزبيرية جاء مباشرا وغير مباشر ، يأتي على مستويات من المفردة والتركيب والمعنى، يتفاوت التناص منها بين آية وأخرى، يستدعى من خلاله الإعجاز القرآني في ذلك التناص، بحيث يكون ثمة انسجام بين موضوع الخطبة والنص الديني الذي تم منه التناص.

-يعد الحديث الشريف المصدر الثاني – بعد القرآن الكريم – الذي نال نصيبه من الاهتمام من الخطباء الزبيريين، من خلال تناول كلمات وجمل وتراكيب من الأحاديث النبوية الشريفة، حيث لا يعتمد هؤلاء إلى إيراد حديث تام بعينه، بل يكتفى بالإشارة الدالة على تناول جزء من هذا الحديث .

- إن الغاية من التناص على اختلاف صوره، لم تكن الزخرفة اللغوية واللمسات البيانية، وإنما كانت الغاية هي منح الخطب الزبيرية مصداقية دينية تستمد قوتها بتمسكها بالدين الحنيف نصا وروحا، مما يعطي لها قبولا لدى المستمعين لهذه الخطب، تدحض به حجج الخصوم السياسيين.

- عرف العصر الأموي طورا ملحوظا في فن الخطابة، لا تقل عن التطور الذي شهده الشعر، ومرد ذلك نشوء الأحزاب السياسية واستفحال النزاع بينها، من جهة ، وبحكم التعرف إلى حياة اجتماعية جديدة، حافلة بأسباب الرغد والرفاهية.

- تبدو أهمية الخطابة في العصر الأموي الذي شهد نقلة حضارية في فترة وجيزة، انتقل فيها العرب من حياة البداوة إلى حياة الحضرة واختلطوا بالأجناس الأخرى في البلاد التي فتحها المسلمون، أنها تشكل وثيقة لدارسي هذا العصر، ليس على الصعيد السياسي وحسب بل التاريخي والاجتماعي أيضا.

قائمة المصادر والمراجع

أولا - القرآن الكريم .

ثانيا - كتب السنة .

1-البهقي . أبو بكر أحمد بن الحسين . مكتبة الرشد . بيروت – لبنان – ط1 ، 2003 م .

ثالثا : الكتب

1 -إبراهيم. محمد إسماعيل . معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، دار الفكر العربي للنشر والتوزيع والطباعة، القاهرة – مصر ، 1998م . لا يوجد طبعة.

2 -أبو دياب، خليل، الأدب الأموي، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، ط1. 2006 م .

3 -. باختين .ميخائيل. شعرية ديستوفسكي، ترجمة: جميل ناصيف التكريتي، دار توبقال، الدار البيضاء، د . ت.

4-الجبيلي. سهيل و الحسين. قصي. الفنون الأدبية في العصر الأموي، دار ومكتبة الهلال، دار البحار. بيروت. ط1 ، 2005 م .

5-الجوفي، محمد أحمد . أدب السياسة في العصر الأموي، دار القلم. بيروت – لبنان ، لا يوجد طبعة وتاريخ نشر

6-عطوان. حسين. نصوص من الأدب الأموي. دار المسيرة للنشر والتوزيع. عمان – الأردن . ط1، 2005 م .

7-القلقشندي . أبو العباس . صبح الأعشى . دار الكتب المصرية . القاهرة . مصر . 1922 م .

8-معروف. نايف . ديوان الخوارج : شعرهم. خطبهم. رسائلهم، دار المسيرة . بيروت . ط1 ، 1983 م .

9-اليازجي. كمال. الأساليب الأدبية في النثر العربي القديم، من عصر علي بن أبي طالب إلى عصر بن خلدون، دار الجيل . لبنان . ط1 . 1986 م .

رابعا : الرسائل الجامعية

1- الخوالدة . محمد احمد ضاعن . تطور الخطابة في ظل التنافس السياسي في العصر الأموي ، رسالة ماجستير . غير منشورة فيلادلفيا 2015-2016 م .

2- عبيدات . ميساء أحمد . التناص في شعر مصطفى وهي التل (عرار) رسالة ماجستير ، جامعة آل البيت ، 2007 .

3- مرشدة . عبدالباسط . التناص في الشعر العربي الحديث ، دراسة نظرية وتطبيقية ، بدر شاكر السياب وأمل دنقل ومحمود درويش نموذجاً ، أطروحة دكتوراة غير منشورة ، الجامعة الأردنية ، عمان – الأردن ، السنة 2000م
خامساً : المعاجم

1- ابن منظور . معجم لسان العرب ابن منظور دار احياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي بيروت 1993م .
مادة نصص .

الحواشي

- ¹ الحوفي ، محمد أحمد . أدب السياسة في العصر الأموي ، دار القلم . بيروت – لبنان ، لا يوجد طبعة وتاريخ نشر ، ص 152 .
- ² منهم : جميل بثينة وكثير عزة وعمر بن أبي ربيعة وغيرهم .
- ³ أبو دياب ، خليل ، الأدب الأموي ، دار عمار للنشر والتوزيع ، عمان ، ط 1 ، ص 26 .
- ⁴ لمزيد من التفصيل أنظر : ديوان الخوارج : شعرهم . خطبهم . رسائلهم . جمعه وحققه الدكتور نايف معروف ، دار المسيرة . بيروت . ط 1 ، 1983 .
- ⁵ الجبيلي . سهيل و الحسين . قصي . الفنون الأدبية في العصر الأموي ، دار ومكتبة الهلال ، دار البحار . بيروت . ط 1 ، 2005 ، ص 441
- ⁶ اليازجي . كمال . الأساليب الأدبية في النثر العربي القديم ، من عصر علي بن أبي طالب إلى عصر بن خلدون ، دار الجيل . لبنان . ط 1 1986 م . ص 38 .
- ⁷ للإطلاع على هذه الخطب . أنظر : نصوص من الأدب الأموي ، للدكتور حسين عطوان . دار المسيرة للنشر والتوزيع . عمان . 2005م ، ط 1 ، الصفحات 425-640 .
- ⁸ ابن منظور . لسان العرب (دار المعارف ، د . ت) مادة نصص نصص 444/5 .
- ⁹ باختين . ميخائيل . شعرية ديستوفسكي ، ترجمة : جميل ناصيف التكريتي ، دار توبقال ، الدار البيضاء ، د . ت . ص 10 .
- ¹⁰ مرشدة . عبدالباسط . التناص في الشعر العربي الحديث ، دراسة نظرية وتطبيقية ، بدر شاكر السياب وأمل دنقل ومحمود درويش نموذجاً ، أطروحة دكتوراة غير منشورة ، الجامعة الأردنية ، عمان – الأردن ، السنة 2000 ، ص 104 .
- ¹¹ عبيدات . ميساء أحمد . التناص في شعر مصطفى وهي التل (عرار) رسالة ماجستير ، جامعة آل البيت ، 2007 . ص 11 .
- ¹² الخوالدة . محمد احمد ضاعن . تطور الخطابة في ظل التنافس السياسي في العصر الأموي ، رسالة ماجستير . غير منشورة فيلادلفيا 2015-2016 م .
- ¹³ إبراهيم . محمد إسماعيل . معجم الألفاظ والأعلام القرآنية ، دار الفكر العربي للنشر والتوزيع والطباعة ، القاهرة – مصر ، 1998م . لا يوجد طبعة . ص 6 .
- ¹⁴ تاريخ الطبري 273/6
- ¹⁵ تاريخ الطبري . مرجع سابق 274/6 .
- ¹⁶ سورة مريم . الآية 59 .
- ¹⁷ القلقشندي . أبو العباس . صبح الأعشى . دار الكتب المصرية . القاهرة . مصر . 1922 م . ج 1 ، ص 218 .
- ¹⁸ عطوان . حسين . نصوص من الأدب الأموي . دار المسيرة للنشر والتوزيع . عمان – الأردن . ط 1 ، ص 501 .
- ¹⁹ سورة آل عمران . الآية 26 .
- ²⁰ عطوان . مصدر سابق . ص 503 .
- ²¹ سورة الحشر . الآية 26 .
- ²² البهقي . أبو بكر أحمد بن الحسين . مكتبة الرشد . بيروت – لبنان – ط 1 ، 2003 م . ترتيب الحديث 7040 .
- ²³ الحوفي . مصدر سابق . ص 334 .